النظام القصوري الواحاتي ودوره في تطور منطقة توات بين القرن 9 و13هـ/15و19م.

الأستاذ الدكتور مبارك جعفري

جامعة أحمد دراية . ادرار . الجزائر

المهرجان الوطني الثاني حول اسدراتن والأيام الدراسية حول سدراته ورقلة يوم 19 إبريل 2018، تنظيم محافظة المهرجان الوطني إسدراتن.

تمهيد: تعد منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري من أكثر المناطق التي كان لها حضور قوي ومتميز في الصحراء الكبرى الإفريقية على العموم بحكم موقعها الجغرافي، وكونها ممرا رئيسيا للقوافل التجارية، وتوات عبارة عن أرخبيل من القصور المتناثرة يتعدى عددها ثلاثمائة قصر على امتداد أزيد من سبعمائة كلم من تبلكوزة شمالا إلى فقارة الزوى جنوبا. وقد أسهمت هذه القصور بفضل نظامها الواحاتي في عمارة المنطقة وتطورها في مختلف المجالات وهو ما سنحاول إبرازه في هذه المداخلة من خلال النقاط التالية:

. توات التسمية والتاريخ.

. القصور في توات.

. أشهر القصور في توات.

. نظام القصور في توات.

. دور القصر في الحياة الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية.

. خاتمة.

. توات التسمية والتاريخ: اختلف المؤرخون في أصل كلمة (توات) ومعناها وهناك روايات كثيرة وأخبار حول هذا الموضوع،. غير أنه وبحسب علمنا يعد كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، للرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة (ت779هـ/1378م)، الذي زار المنطقة سنة754هـ/ 1353م[1]، من أقدم المصادر التي ذكرت المنطقة بهذا الاسم (توات)، ثم توالت بعد ذلك المصادر في ذكره: كابن خلدون(ت808هـ/1406م)، والعياشي(ت ق11هـ/17م)،...وغيرهم. ومن بين الروايات التي حاولت إعطاء تفسير للاسم ومصدره ما ذكره السعدي في كتابه "تاريخ السودان"[2]: من أن السلطان(كنكن موسى) ملك مالي، لما أراد الحج وصل إلى المنطقة، فتخلف الكثير من أصحابه، لوجع أصابهم في أرجلهم يسمى في لغتهم (توات)، فبقوا هناك واستوطنوا،

ومنذ ذلك الحين سمي المكان بذاك المرض. بينما يرى محمد بن عمر البوداوي التواتي (ت.ق13هـ/19م) في كتابه "نقل الرواة عن من أبدع قصور توات" أن السبب في تسمية هذا المنطقة بتوات، أنه لما فتح عقبة بن نافع الفهري بلاد المغرب، وصل خيله المنطقة فسألهم عن هذه البلاد هل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب، فأجابوه بأنها تواتي، فأنطلق اللسان بذلك أنها تواتي[3]. ويرى أبو عبد الله الأنصاري، في كتابه "فهرست الرصاع"، أن توات هو أسم لأحد القبائل الصحراوية بالجنوب[4]. ويورد الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي في كتابه "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام" تفسيراً آخر للاسم فيقول: أنه لما حلت زناته بأرض الصحراء، قالوا تواتي للسكن، في إشارة لجواب عن سؤال تم طرحه، هل تواتي للسكن؟ ومن تم حملت المنطقة الاسم[5]. ويرى(روكليس . Reclus)، أن توات اسم بربري يعني الواحات[6]... وغيرها من الروايات رغم اعتقادنا أن هذا الاسم هو اسم زناتي أمازيغي لكون زناته هم أول من استقر واستوطن بالمنطقة كما أن اغلب القصور أسماؤها زناتية.

تعود عمارة المنطقة إلى عصور ما قبل التاريخ حسب الشواهد والآثار[7]. كما استخدم الفينيقيون والرومان طريق توات في علاقاتهم مع الجنوب. ويعتقد البعض أن اليهود وصلوا المنطقة منذ حوالي خمسين سنة قبل الميلاد، وبنوا قصورا هناك[8]. وبعد دخول الإسلام ازدادت أهمية المنطقة، خاصة بعد أن أصبحت الطريق الرئيسي للقوافل التجارية العابرة للصحراء نحو السودان الغربي، وقوافل حجيج جنوب بلاد المغرب وبلاد التكرور. ولهذا زارها كثير من الرحالة مثل: ابن بطوطة سنة754هـ/1353م[9]، والتاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Malfan Antonio) سنة 850هـ/1447م[10]، وحسن الوزان (ليون الإفريقي) سنة917هـ/1511م[11]، وأبو سالم العياشي سنة1072هـ/ 1661م[12]، والحاج ابن الدين الأغواطي سنة 1244هـ/1828م[13]، والرحالة الألماني جير هارد رولف سنة 1280هـ/1864م[14]...وغيرهم. وتوافد عليها كثير من العلماء نذكر منهم: الشيخ عيسى بن محمد البطيوي سنة 714هـ/1314م[15]، والشيخ أبو يحيى محمد المنياري عام 815هـ /1412م[16]، والشيخ يحي بن يدر بن عتيق التدلسي سنة 845هـ/1441م[17]، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني عام 862هـ/1458م[18]، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 882هـ/1478م، والشيخ العبدلاوي بن الطيب الفزاني الليبي سنة 992هـ/1584م[19]... وغيرهم.

. القصور في توات:

تشكل القصور المكون الأساسي لمنطقة توات، وتوات في الأصل مجموعة من القصور والواحات المتناثرة في الصحراء، على امتداد أزيد من سبعمائة كلم، والقصور في توات تأخذ شكلاً مستطيلاً، أو دائرياً، أو مربعاً، وغالباً ما يتم بناؤها فوق الروابي، والأماكن المرتفعة لتكون بعيدة عن السيول والفيضانات، ولتسهيل عملية مراقبتها والدفاع عنها. وتضم الحظيرة الثقافية لتوات اليوم مئات القصور الكثير منها لا يزال مأهولا والباقي عبارة عن أطلال منتشرة في كل مكان شاهدة على ذلك.

وفي إحصاء يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي، بلغ عدد قصور توات أكثر من 260قصراً تقريبا[20]، بالرغم أن بعض المصادر ترى أن العدد كان أكبر من ذلك بكثير، حيث يرى مثلاً ابن خلدون: أنه كان بها في القرن الربع عشر ميلادي مائتي قصر في توات، ومائة في تينجورارين[21]. بينما يرى مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: أنه كان لليهود فقط حوالي 300 قصر[22]. ومعظم القصور في توات تحمل أسماء أمازيغية. وللتعرف أكثر على طبيعة القصور، قمنا بدراسة ميدانية قادتنا لأحدها[23]، و مكنتا من التعرف على بعض من خصائصها، وتسجيل بعض الملاحظات منها:

أن القصر تم بناءه من الطين والحجارة على شكل مربع، يبلغ طول ضلعه أربعة وثلاثون متراً، و تقدر مساحته، بحوالي ألف ومائة وستة وخمسون متر مربع، محاط بجدار خارجي سميك، يبلغ سمكه في الأسفل واحد متر، ويقل بالأعلى، يبلغ ارتفاعه حوالي ستة أمتار، يحيط به خندق، يبلغ اتساعه بين مترين إلى ثلاثة أمتار، وعمقه بين ثلاثة إلى أربعة أمتار.

للقصر مدخل واحد بعرض واحد متر وارتفاع مترين، ويوجد بداخله منازل من غرفتين وغرفة واحدة، يبلغ متوسط طول الغرفة مترين وسبعون سم، وعرضها متر وسبعون سم، ويبلغ ارتفاعها مترين ونصف تقريباً، توجد به كذلك أزقة ضيقة، بعرض تسعين سم، تتوسط القصر ساحة صغيرة، ومسجد وفي زواياه الأربعة توجد أبراج للمراقبة، مربعة الشكل، متسعة بالأسفل وتضيق قليلاً بالأعلى، يبلغ متوسط ضلعها مترين وستون سم، وارتفاعها حوالي الثمانية أمتار. وتوجد خارجه المقبرة والبساتين والفقاقير.

أشهر القصور: اشتهرت في توات كثير من القصور بل يمكن تسمية البعض منها حواضر نظرا للمكانة الكبيرة التي كانت عليها وشكلت مركز إشعاع ثقافي واقتصادي وسياسي نذكر منا:

ـ تمنطيط[24]: اسم زناتي مركب من كلمتين (اتما) تعني الحاجب، و(تط) تعني العين، أهم قصور توات وأكثرها شهرة على الإطلاق[25]، تقع في توات الوسطي، ورد ذكرها كثيرا في كتب المؤرخين، وصفها ابن خلدون: بكثرة عمرانها، وموقعها الإستراتيجي، حيث تجتمع القوافل، ومنها تخرج لبلاد السودان، وفي هذا يقول: " ويسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة، تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب، وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستجر في العمران، وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى مالي، ومن بلد مالي إليه"[26].

زارها التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي(Antonio Malfan) سنة 850هـ/1447م، وأقام بها سنتين تقريبا في ضيافة أحد تجارها، وتمكن من إرسال رسالة منها إلى جنوة بإيطاليا، مما يدل على انتظام القوافل من وإليها، و بعد عودته اشتهرت في أوربا بعد ما اخبر عن حالها، ووصف أهميتها التجارية وأسواقها، وابلغ أن اليهود يشكلون جالية كبيرة بها، ولهم نفوذ وسطوة بدخلها[27].

اختلف المؤرخون في تاريخ عمارتها وأول من سكن بها، حيث أخبرنا مؤرخ المدينة محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم، المعروف بابن بابا حيدة، صاحب الكتاب الذي اختص في تاريخها، والذي جاء تحت عنوان: " البسيط في أخبار تمنطيط": أن أول من نزل بالمدينة اللمتون من بقايا المرابطين، الذين جاءوا من المغرب الأقصى بعد سقوط دولتهم على يدي الموحدين، في القرن السادس الهجري، أما برنارد سافرو (Bernard Saffroy) فأخبرنا أن المدينة تأسست سنة 472م، و بنا اليهود أول قصر لهم ويدعى (أولاد همال) مع معبد يهودي سنة 517م[28].

عرفت المدينة ازدهارا وتطورا في مختلف المجالات: الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والعمرانية، ذاع صيتها خاصة مابين القرن الثامن والعاشر الهجريين، الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين، وتوافد عليها العلماء من كل مكان، نذكر منهم: أبو يحيى محمد المنياري، قدم عام 815هـ/1412م، والشيخ يحيى بن يدر التدلسي عام845هـ/1441م، والشيخ عبد الله العصنوني عام875هـ/1471م، والشيخ بن عبد الكريم المغيلي سنة 882هـ/1477م، والشيخ ميمون بن عمرو بن محمد الباز عام 890هـ/1485م.

. تيميمون: وردت في كثير من المصادر تحت اسم تينجورارين أو قورارة، ثم أطلق الاسم على كل الجهة الشمالية للمنطقة، تعود عمارتها إلى أزمنة غابرة وتذكر بعض الروايات أن اسم تيميمون يعود للأخوين كانا يسكنان نواحي واد الساورة، قدموا إلى توات، كان أحدهما يسمى ميمون، نزل بقوبة بالقرب من تيميمون، وكانت تسكن المنطقة قبائل من زناته والعرب وبعض اليهود، فأقام له

أهل قورارة رقصة شعبية مشهورة تسمى (أهليل)، وبقي ميمون مع تلك القبائل لغاية مجيء الولي الصالح سيدي موسى بن مسعود (ت920هـ/1514م) إلى المنطقة، فاستقبلته القبائل ومنها (أولاد داوود، وأولاد حمو الزين، وأولاد الذهبي)، ودعاهم الشيخ بن مسعود للتوحد، وتكوين حصن منيع في وجه الغزاة، التقى أثناءها بالشيخ ميمون، ووعده بأن هاته المدينة سوف تحمل اسمه، ومن ذلك الحين توحدت تلك القبائل وأقيمت في المكان سوق عامرة موازية لسوق اليهود، ومدينة مزدهرة حملت اسم ميمون، وأصبحت عاصمة لمنطقة تينجورارين[29]، وإذا ما صحت هاته الرواية فإن عمارتها كانت في القرن التاسع، أو بداية القرن العاشر الهجري.

برزت المدينة كحاضرة علمية وظهر بها كثير من العلماء، منهم الشيخ عمر بن الصالح الأوكروتي الجراري (ت قبل 998هـ/1589م)، والشيخ محمد بن عبد الله ابن عبد الكريم الوطاسي الجراري (ت بعد1017هـ/ 1608م)، الذي عينه المنصور قاضيا على الصحراء، ولم يمنعه ذلك من التدريس والإرشاد[30]، والشيخ أبو محمد دفين تبلكوزة(ت1035هـ/1625م)، والشيخ عبد الله الجوزي(ت1035هـ/1625م)[31].

ـ زاوية كنته[32]: هي أحد قصور توات الوسطى يعود الفضل في تأسيسها إلى احد العلماء البارزين، وهو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد المعروف بالرقاد الكنتي، ينتهي نسبه للصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه[33]، في حدود سنة 999هـ/1591م، ظل هناك يستقبل الطلبة والوافدين، من أهل العلم من مختلف الجهات والأقطار، عرف المكان بالزاوية الرقادية الكنتيه، وبعد مدة أقبل عليه احد الأشراف، وهو مولاي أمحمد بن محمد المشهور بسيدي حمّ بن الحاج من تافيلالت بالمغرب، قادما من تمبكتو، استوطن معه في الزاوية[34] وتزوج إحدى بناته، ولما طاب له المقام بها، أرسل لإخوته طالبا منهم اللحاق به في الزاوية فلحقوا به، وكانوا سبعة فتصاهروا وتجاوروا مع الشيخ سيدي أحمد.

و بعد وفاته سنة 1063هـ/ 1653م[35]، خلفه ابنه الشيخ سيدي علي الذي كان مثل أبيه في العلم والجود، توسعت الزاوية في عهده، وعمت شهرتها الأرجاء وكثر مريدوها من الطلاب وعابري السبيل من توات والسودان الغربي، ومع مرور الوقت قام إلى جانبها قصر سمي باسمها، أصبح أحد أهم المراكز الحضارية في توات، تمر به القوافل التجارية من وإلى بلاد السودان، كما أقام بها الأشراف من نسل مولاي حمّ بن الحاج، زاوية لإطعام الطعام وإكرام الضيوف، ذاع صيتها وصيت أصحابها، في القرن الثاني عشر الهجري[36].

ـ تنيـلان[37]: أحد قصور تيمي، تقع في الشمال الشرقي منها، يقول المؤرخون المحليون؛ أنها قسمان، القديمة ويجهل تاريخ تأسيسها، لكن تذكر الروايات أن الشيخ مولاي سليمان بن علي حل بها سنة571هـ/1175م، وسكن بها، وقد اندثرت وتفرق أهلها، أما الجديدة فيعود تأسيسها إلى الشيخ سيدي أحمد بن يوسف[38]، وتقول الروايات التي وجدت في خزائن أحفاده، أن الشيخ أحمد بن يوسف كان يسكن قصر أولاد ونقال، ووقعت خصومة بينه وبين أخواله (أولاد داوود) فخرج غاضباً، إلى أن وصل إلى تنيلان القديمة، ووجد بجانبها أرض لا يملكها أحد فأقام بها مسجداً أولاً، ثم بنا الزاوية، ورحل إليها في شهر رمضان عام 1054هـ/1644م، وبجانب الزاوية بنا القصر، وحفر الفقاقير، وعمر البساتين[39]، وجعل كل ذلك وقفاً لله تعالى، وسماها رزق الله الواسع بالنبي الشافع، كما جاء في وصيته التي تركها بخط يده، وفيها التحديد الدقيق للزاوية والقصر اللذان بنيا على ارض جرداء، على الطريق من بلد تنيلان، أما حدودها فهي: من بلد تيمي إلى جبل بغيول طولا، ومن فقارة أهل تنلان إلى حدود فقارة اجدلاون[40].

عمر الزاوية أحفاد الشيخ من بعده، وأصبحت مركز إشعاع ثقافي وعلمي تستقطب الطلبة من كل حدب وصوب، وبفضله عادت كلمة (التنيلاني) مرادفاً لأسماء الكثير من العلماء في المنطقة، ومن أبرز الذين درسوا بها: الشيخ سيد عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف(ت1152هـ/1739م)، الشيخ أبو الأنوار(ت 1168هـ/1755م) [41]، الشيخ عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقادي(ت1157هـ/1766م)، الشيخ محمد بن أب المزمري(ت1160هـ/1747م)، الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت1189هـ/1775م). احتلت الطليعة بداية من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، من بين قصور مقاطعة تيمي التي بدأ نجمها في الصعود، في حين بدأ دور قصور تمنطيط في التراجع.

ـ ملوكـة [42]: هي إحدى قصور تيمي، تقول الروايات وبعض التقاييد الخطية[43]، أن مؤسسيها هم من المرابطين الذين جاءوا من المغرب، والذين استقروا أول الأمر بقصر أدغا، من هؤلاء المرابطين برز خمسة إخوة وهم: (الحاج أمحمد، الحاج بلقاسم، الحاج علي، الحاج عبد الرحمان، عبد الله الملقب بحم)، اشتروا ملوكة التي كانت ملكا لامرأة يقال لها (حدية)، بثمن عشرين فرفور[44]، على يد القاضي الشيخ محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، وكان تاريخ تأسيسها سنة 1010هـ/1601م، تشتهر ملوكة بقصرها وقصبتها العتيقة، وتعد نموذجا عمرانيا راقيا، لازال صامدا إلى اليوم، برزت ملوكة كمركز إشعاع علمي وثقافي بداية من القرن الثاني عشر الهجري،

مع بروز عدد من العلماء، وتوافد الطلبة عليها للدراسة، منهم: الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي، الذي تولى القضاء في توات 1210هـ/1795م، اشتهرت ملوكة في عهده، وأصبحت مكاناً لحل النزاعات، ودار للعلم والإفتاء في توات[45].

ـ أولـــف: تختلف الروايات حول أصل التسمية، حيث يرى البعض أنها مشتقة من (الألفة)، باعتبار أن من يسكنها يألفها سريعا، أما البعض الأخر فيرى أنها مشتقة من الكلمة البربرية(أقلف)، بالقاف المعقوفة وتعني خلية النحل، كما تطلق الكلمة على وسط النخلة، وكلاهما تعبيرا عن المكان الجاذب للسكان[46].

و أولف عبارة عن مجموعة من القصور، تأسست في فترات مختلفة، حيث يرى (كورنو . CORNAND) في تقريره عن المنطقة: أن قبيلة أولاد من لا يخاف، أسسوا قصرهم خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وبنا أولاد أحمد القادمين من وجلان قصر (حينون)، وتبعهم الشيخ سيدي محمد بن سيدي احمد القادم من الخلفي الذي بنا (تقراف)، ليحل أولاد زنان الهلاليون بالمنطقة سنة1101هت/1690م ويشيدوا مجموعة من القصور(كعمنات)[47]. غير أن البعض يري أن تاريخ تأسيس القصر قد تم قبل هذا التاريخ بقرون، وأن بها مسجد تم بناؤه سنة 164هـ/781م، كما تدل البقايا الأثرية على أن عمارة المنطقة ووجود الإنسان بها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ[48]. ضمت المدينة العديد من الزوايا والمدارس الدينية والخزائن، كزاوية مولاي هيبة التي أسسها الشيخ أبو الأنوار التنيلاني، وسماها على ولد ابنته مولاي هيبة بن محمد[49].

أنجبت أولف الكثير من العلماء من أشهرهم: محمد بن ابَّ المزمري(ت1160هـ/1747م)، مسقط رأسه قصر (أولاد الحاج)، والشيخ علي بن محمد الصالح بن أحمد أبختي(ق 12هـ/18م) الفقيه والمدرس بزاوية حينون.

الأهمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للقصر: تعتبر القصور الركيزة الأساسية للحضارة في توات، والتي يمكن تسميتها بحضارة القصور أو الواحات. و لم يستطع المجتمع التواتي إقامة تجمعات سكانية كبيرة مثل باقي المناطق، بل على العكس من ذلك كان السكان غالبا ما يلجئون إلى الهجرة والترحال، من التجمعات السكانية الكبيرة، ويختطون قصور جديدة، بحثاً عن الماء في المناطق المساعدة على إقامة الفقاقير، والتربة الجيدة الصالحة للزراعة، لأن التربة الصحراوية فقيرة وغير متجددة، و يقل مرددوها، من سنة إلى أخرى. وما يدل على ذلك سكان قصر

(انزقمير)، الذي عُدَّ من أكبر القصور في توات الوسطى في نهاية القرن(13هـ/19م)، بلغ عدد سكانه 1210 نسمة[50].

وشكلت القصور في المنطقة، وحدات سياسية شبه مستقلة، تدير شؤونها بنفسها، وعرفت نظام الجماعة، وهو أشبه بنظام القبيلة، ولكل قصر جماعة تسيره وتسهر على تنظيم الأمور بداخله[51]، وله حدود متعارف عليها، وقوانين خاصة به أحيانا، وغالبا ما تتشكل الجماعة من عشرة[52] رجال، من خيرة رجال القصر، يمثلون كافة القبائل داخله، يقودهم مسئول الجماعة، وتتمتع هذه الأخيرة بسلطة مادية ومعنوية كبيرة.

وفي حالة حدوث نزاع أو مشكلة داخل الحي، تتدخل الجماعة لفض النزاع، وفي حالة عجزها يرفع إلى القاضي الشرعي، أو ما يعرف عند السكان مجازاً (ربي والنبي) كناية عن الكتاب والسنة، ويوجد القضاة في الأماكن التي عرفت زوايا مثل (تمنطيط . ملوكة . زاوية كنته...الخ) وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بسلطة روحية قوية، تكفل تنفيذ الأحكام التي يصدرونها. كما كان لمقدم الزاوية، وشيوخ الطرق الصوفية، وكبار الشرفاء، وشيوخ القبائل، دور، وسلطة، ونفوذ، داخل المنطقة، ولازالت الكثير من القصور تحافظ على هذا النمط من النظام إلى اليوم.

يقوم النشاط الاقتصادي للقصر على الزراعة والتي تعتبر النشاط الرئيسي الذي يمارسه السكان، وأحدي عوامل الاستقرار، وكانت تمارس في البساتين أو (الجنة) كما تسمى عند السكان المحليين، وهي مساحات زراعية صغيرة، تشكل مجتمعة واحة، تكون غالباً في الجهة الغربية من القصر، تعود أغلب ملكيتها لطبقتي الأشراف والأحرار، ويتم سقيها بمياه الفقاقير، وهي عبارة عن سلسلة مترابطة من الآبار، تأتي من مكان مرتفع ثم تستمر في الانحدار، إلى أن يخرج الماء على السطح، اختلف المؤرخون في سبب تسميتها بهذا الاسم، فقيل أنها مشتقة من الفقر؛ وهو الحفر، فيقال فقرَ المكان أي حفره، وقيل مأخوذة من التفجير، لأن العيون تتفجر بداخلها، فقلبت الجيم قافاً معقودةً، وتحولت إلى التفقير، ومنها جاءت الفقارة، وقيل أخذ اسمها من العمود الفقري لأن آبارها تشبه الفقار في تسلسلها[53].

وهناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ وصول الفقارة إلى المنطقة، حيث يرى الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التنيلاني[54](ق11هـ/17م) أن نشأتها كانت على يد الإنسان البربري في رحلة البحث عن المياه في الصحراء، بعد الجدب الذي أصاب المنطقة، بعد أن تتبع السيول المنحدرة من الأماكن المرتفعة نحو المنخفضة فصنع قناة ثم بئراً، ثم ربط بعد طول المسافة بئر

بأخر إلى أن وضع الفقارة، ويرى أن زناته هم أول من ابتدعوها ولم يسبقهم إليها أحد[55]، ويدعم هذا الطرح المؤرخ ابن خلدون الذي لم يحدد لنا مصدرها، إلا أنه ذكر أنها تختص بتوات ووركلان وريغ، ولا وجود لها في المغرب قاطبة، ووصفها بالغريبة في استنباط الماء، وأبدى إعجابه بالطريقة التي يتم بها استخراج الماء الذي يجري على سطح الأرض مثل الأودية، ثم يحدثنا عن كيفية إنجازها. ويستدل البعض الأخر على زناتيتها، بأسماء الفقاقير نفسها، والتي معظمها بربرية، كذلك أسماء مكوناتها، وكل ما يرتبط بها، مثل: (أنفاد، الماجن، أمزر. غير أن هناك رأي آخر، يرى أن الفقاقير كانت معروفة في المدينة المنورة، وتسمى (الشراج) ومنها انتقلت إلى توات[56].

وعند ذكر الزراعة في القصر، لابد من ذكر النخيل، فهي العمود الفقري للحياة، و أحدى الركائز الأساسية للحضارة التواتية، ومؤنسة الإنسان في تلك الصحراء القاحلة، تعد من أكثر الكائنات الحية مقاومةً لقسوة الطبيعة. ولكثرة تعلق الإنسان التواتي بالنخلة، تجده يعرف أدق التفاصيل عنها، وتربطه بها علاقة حميمة، كما يعتمد عليها كلياً في حياته اليومية؛ فالتمر غذاءه الأساسي، والحطب للتدفئة والطهي، والجذوع لتسقيف البيوت، والألياف لصناعة الحبال، والسعف لصناعة القفاف...الخ.

وإذا كانت الزراعة قد ارتبطت في المنطقة بالنخلة، فإن الأمر نفسه يمكن أن يقال عن الصناعة، حيث شكلت النخلة هاته الشجرة الصحراوية، المادة الأولية لكثير من الصناعات والحرف التقليدية، حتى لا تكاد تخلوا حرفة، أو صناعة في توات، ألا وتعتمد عليها بطريقة أو بأخرى[57]، وقد أحصى البعض 140 فائدة للنخلة[58]. و كثير من الحرف كان يمارسها الإنسان التواتي كجزء من نشاطه اليومي في البساتين أو داخل المنازل، ولا تزال الكثير من المصنوعات شاهدةً إلى اليوم على حرفية الإنسان التواتي، الذي تأقلم مع محيطه، وأبدعت أنامله كل ما يحتاج إليه في حياته اليومية، هذا إلى جانب الحرف اليدوية[59]، اشتهرت بعض القصور بصناعات وحرف اعتبرت في حينها متطورة، كصناعة الحلي، الصياغة، الفخار، الأواني الحديدية والنحاسية، الفؤوس، المنجل، والأسلحة: كالسيوف، الرماح، السكاكين ....الخ. كان لهاته الحرف محلات وأماكن معروفة، وعائلات تشتهر بها ومن بين القصور تمنطيط، والتي يذكر إبن بابا حيدة صاحب كتاب "البسيط في أخبار تمنطيط" مع شيء من المبالغة، أنه كان بها ثلاثمائة وستون صائغاً، وعدد كبير من الحدادين والنجارين[60]، بالإضافة لبودة، تيمادنين، تيميمون....الخ.

وإلى جانب الزراعة مارس الإنسان التواتي التجارة انطلاقا من القصور، ولهذا السبب استقرت جالية كبيرة من اليهود في قصور توات ويصف لنا العياشي الحياة التجارية بالمنطقة خلال القرن 11هـ /17م، وبالضبط سنة 1072هـ/1661م بالمزدهرة، وأن أهل تسابيت أحد قصور توات، أصحاب تجارة، كما أن بلاد توات هي مجمع القوافل من بلاد السودان الغربي، وتقام هناك أسواق كبيرة عند قدوم القوافل التجارية، توجد بها كثير من السلع مثل: الخيل، الملابس، الحرير. كما أن الحجاج المغاربة يشترون ما يحتاجون إليه من التمر والذهب من توات، لآن أثمانها رخيصة، مقارنة مع المغرب[61]. وكانت مساهمة القصور في هذه النهضة التجارية واضحة من خلال:

كثرة القصور وامتدادها الجغرافي (أكثر من أربعة عشر يوما تقريباً المسافة بين أبعادها)، مما يوفر للتجار بيئة متصلة يسهل فيها الحصول على الماء والزاد، وسط صحراء قاحلة.

ـ موقعه الإستراتيجي الذي يتوسط الصحراء، ويربطها بمختلف الجهات الشمال بالجنوب والشرق بالغرب.

ـ وجود الماء في منطقة جدبه، محاطة بالعروق والكثبان الرملية، مما يجعل إمكانية تجاوزها من طرف القوافل امرأ مستحيلا.

. وجود عدد كبير من السكان وتنوع أجناسهم، مما يوفر للتجار سوقاً استهلاكية واسعةً ومربحة.

. توفرها على الأمن، خاصة بالنسبة للأجانب، اللذين يجدون فيها كل احترام وعناية، وتوفر أغلب القصور على دار للضيافة وخير دليل على ذلك؛ وصول التاجر الجنوي لها وبقائه سنتين، ثم عودته منها سالماً دون أن يلحق به أذى، ويؤكد هذا الطرح الحسن الوزان بقوله عن أهل توات: ((... وكثيرا ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون، إلا أنهم لا يمسون الغرباء بسوء...)) (62) .

ـ وجود شبكة من الطرق التجارية[63] تربط المنطقة بباقي المناطق، ومن مختلف الجهات، وغالبيتها عبارة عن مجاري الأودية الجافة[64]، التي بها ينابيع توفر الماء لسالكي الصحراء، وتمتاز بمتانة تربتها، مما يساعد على السير، وبها معالم يسهل أتباعها، كما تنموا بها الأعشاب والحشائش، مما يوفر للإبل غذاءها.

وتكمن لأهمية الثقافية للقصور في كون الكثير منها كانت بدايتها عبارة عن زوايا، توسعت لتصبح قصرا، يضم أبناء المؤسس وبعض الوافدين إليها، مثل: تنيلان، زاوية كنته، زاوية سيدي عبد القادر، زاوية سيد البكري...الخ، كما لا يخلوا قصرا من قصور توات من كتاب لتحفيظ كتاب

الله يعرف محليا (اقربيش) ولا يكاد يوجد قصراً إلا وتجد فيه داراً وبستاناً ومياهاً، صدقة جارية، للمسجد وحفظ القرآن الكريم، تحفيزاً للطلبة على طلب العلم، والتفرغ له، وهو ما شجع الكثيرين على احتراف التعليم، والدراسة، حتى يكون لهم نصيب من الأوقاف والهدايا. وعند ختم الطفل للقرآن الكريم، يقام له احتفال بهيج ووليمة، يستدعى فيها الضيوف من القصور المجاورة، ويرتدي فيها لباسا جديدا يليق بحامل كتاب الله، ويطوف به الناس داخل القصر، وتمنح له الهدايا.

وضمت بعض القصور زوايا معروفة بشيوخها مثل: تنيلان، تمنطيط، ملوكة، زاوية كنته، وكان يتم فيها المستوى الثاني من التعليم ويكون فيها أكثر تخصصاً وانضباطاً، يستفيد خلاله الطلبة القادمين من مسافات بعيدة، من الإطعام والمبيت، وفق نظام داخلي تكون الدراسة فيه من الفجر إلى صلاة العشاء.

خاتمة: وفي ختام هذه المداخلة خرجنا بمجموعة من النتائج من بينها:

– تعد منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري من أكثر المناطق التي تضم عددا كبيرا من القصور في الجنوب الجزائري والتي يزيد تعدادها عن ثلاثمائة قصر.

– اختلف المؤرخون في أصل كلمة (توات) وهناك روايات كثيرة وأخبار حول هذا الموضوع.

– تعود عمارة توات إلى عصور ما قبل التاريخ وهو ما تدلل عيه الآثار وتذكره المصادر التاريخية.

– زار توات كثير من الرحالة مثل: ابن بطوطة، وأنطونيو مالفانتي، وحسن الوزان (ليون الإفريقي) والعياشي وابن الدين الأغواطي وجير هارد رولف ...وغيرهم.

– توافد على المنطقة كثير من العلماء مثل: الشيخ عيسى بن محمد البطيوي، والشيخ أبو يحيى محمد المنياري، والشيخ يحي بن يدر بن عتيق التدلسي، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ العبدلاوي بن الطيب الفزاني.

–تشكل القصور المكون الأساسي لمنطقة توات، وتوات في الأصل مجموعة من القصور على امتداد أزيد من سبعمائة كلم.

– تأخذ القصور في توات شكلاً مستطيلاً، أو دائرياً، أو مربعاً، وغالباً ما يتم بناؤها فوق الروابي، والأماكن المرتفعة لتكون بعيدة عن السيول والفيضانات، ولتسهيل عملية مراقبتها والدفاع عنها.

– اشتهرت في توات كثير من القصور مثل: تمنطيط، تيميمون، زاوية كنته، تنيلان، أولف، ملوكة.

– تعتبر القصور الركيزة الأساسية للحضارة في توات، وشكلت وحدات سياسية شبه مستقلة، تدير شؤونها بنفسها، وعرفت نظام الجماعة.

– يقوم النشاط الاقتصادي للقصر على الزراعة والتي تعتبر النشاط الرئيسي الذي يمارسه السكان، وأحدي عوامل الاستقرار في المنطقة.

ـ تعد النخلة الركيزة الأساسية للنشاط الاقتصادي في توات والمادة الأولية لكثير من الصناعات والحرف التقليدية، وقد أحصى البعض 140 فائدة للنخلة.

– ساهمت القصور في ازدهار النشاط التجاري بالمنطقة بسبب موقعها الإستراتيجي الذي يتوسط الصحراء، ويربطها بمختلف الجهات الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، ووجود الماء، وعدد كبير من السكان وتنوع أجناسهم، مما يوفر للتجار سوقاً استهلاكية واسعةً.

. تكمن لأهمية الثقافية للقصور في كونها ضمت جميعها كتاتيب لتحفيظ القرآن كما ضمت البعض منها زوايا فاقت شهرتها الآفاق وتخر منها الكثير من الطلبة مثل: تنيلان، زاوية كنته، تمنطيط، زاجلو، انجزمير.

(**1**) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406، 407.

(**2**) عبد الرحمان بن عبد الله السعدي: **تاريخ السودان**، طبعة هوداس، باريس، 1981م، ص07.

(**3**) مُحَمَّد بن عمر البوداوي الجعفري: **نقل الرواة عن من أبدع قصور توات**، خزانة بودة، أدرار، الجزائر، ص3، 4.

(**4**) أبو عبد الله الأنصاري : **فهرست الرصاع**، تحقيق مُحَمَّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ، ص 127.

(**5**) مُحَمَّد بن عبد الكريم: **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط**، د ر، خزانة كوسام ادرار، الجزائر، ص10.

(**4**) Reclus Élisée: **Nouvelle Géographie universelle**, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris,1886, p 845.

(**6**) Camps. G : **Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara**, Doin, Paris, 1974. P. 219.

(**7**) Bernard Saffroy: **chronique de Touat**, centre saharien, Ghardaïa, Algérie, 1994,P. 01.

(**9**)ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406- 407.

(**10**) نياني ج .ت وآخرون: **تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (إفريقيا من ق 12 إلى ق 16)** . اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م، ص671.

(**11**) الحسن بن مُحَمَّد الوزان (ليون الإفريقي): **وصف إفريقيا**، ج2. ترجمة مُحَمَّد حاجي، ومُحَمَّد الأخضر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص 133.

(**12**) عبد الله بن مُحَمَّد العياشي: **الرحلة العياشية 1661م – 1663م**. ج 1. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص 79 وما بعدها.

(**13**) الحاج ابن الدين الأغواطي: **رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية**. ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2. ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م، ص ص 257، 258.

(**14**) إسماعيل العربي: **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 25.

(**15**) عبد الحميد بكري: **النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ**. دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2005م، ص62.

(**16**) مُحَمَّد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): **القول البسيط في أخبار تمنطيط**. تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.بدون تاريخ، ص 27 ؛ مُحَمَّد بن عبد الكريم بن مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني**. مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ورقة 18.

(**17**) مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **درة الأقلام، المخطوط السابق** ورقة 19.

(**18**): ابن بابا حيدة، المصدر السابق، ص 31.

(**19**) نفسه: ص 18.

(**20**) **تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من القصور**،المطبعة الملكية، الرباط،المغرب،1962 م.

(**21**) عبد الرحمان ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، 08 أجزاء، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان،2001م، ج7، ص ص76، 77.

(**22**) مولاي احمد الطاهري الإدريسي: **نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات**، مخطوط، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص 94.

(**23**) الدراسة أجريت على أحد القصور ويعرف بقصر (بركة)، يقع بالقرب من قصر (غرميانو) للجهة الجنوبية، يقال أن ساكنيه كانوا من أشراف تيوريرين، رحلوا عنه إلى موطنهم الحالي، ولا يزال إلى يومنا هذا منتصبا، رغم الظروف الطبيعية وعمل الإنسان، كشاهد على الحضارة التواتية، وهناك أمثله كثيرة تشبهه في كل المنطقة.

(**24**) تبعد تمنطيط عن مقر الولاية ادرار حوالي 12كلم جنوباً.

(**25**) المهدي البوعبدلي: **أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، مجلة الثقافة**، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر،السنة16، العدد94، جويلية . أوت 1986، ص83 وما بعدها.

(**26**) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص ص76، 77.

(**27**) نيابي ج .ت وآخرون: المرجع السابق، ص671.

(**28**) Bernard Saffroy:, op.cit, p 4.

(**29**) الصديق حاج أحمد: **التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ**، ط1، الجزائر،2003، ص 60.

(**30**) مُحَمَّد حجي: **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، جزآن، مطبعة فضالة، المغرب، 1977م.، ج2/ ص ص629، 630.

(**31**) مُحَمَّد الصالح حوتيه: **توات والأزواد**، جزآن، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م. ج1، ص 273.

(**32**) تبعد زاوية كنته عن مدينة ادرار ب80 كلم، ويطلق اسمها اليوم على كل بلدية زاوية كنته الممتدة من قصر مكيد شمالا إلى اظوى جنوبا.

(**33**) للمزيد حول نسب الشيخ سيدي احمد وقبيلة كنته وتواجدها في توات والصحراء أنظر : بول ماريّ: **كنته الشرقيون**، تعريب مُحَمَّد محمود ودّادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق سوريا،1985م.

(**34**) أمُحَمَّد الكنتي: **دور آل كنته في نشر الإسلام**، أعمال الملتقى الثاني حول دور آل كنته في نشر الثقافة الإسلامية، المنعقد بتاريخ 20ماي 2004، زاوية كنته، ادرار، ص ص4، 5.

(**35**) مُحَمَّد بن سيد المختار الكنتي: **الطرائف والتلائد من كرمات الشيخين الوالدة والوالد**، مخطوط، جزآن، خزانة الشيخ سيدي عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر، ج1، ص 141.

(**36**) أمُحَمَّد الكنتي: محاضرة حول **تأسيس عرش أولاد السي حمو بالحاج**، أعمال الملتقى الرابع حول تاريخ زاوية كنته(أولاد سي حمو بالحاج تاريخ وحضارة)، 01جوان 2006م، زاوية كنته، ادرار الجزائر،

(**37**) تبعد حاليا عن مدينة أدرار حوالي 2 كلم، للجهة الشمالية الشرقية.

(**38**) الشيخ أحمد بن يوسف ولد بأولاد ونقال سنة1002هـ/1593م، درس على يد الشيخ عبد الكريم بن مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد، عرف بعلمه، وزهده، وصبره، كان له باع في الفقه والحديث والشعر، تقول الروايات أنه بعد ما وقعت العداوة بينه وبين أخواله، دعا عليهم، فهلكوا عن بكرة أبيهم توفي سنة 1078هـ/1667م. مُحَمَّد عبد القادر بن عمر التنيلاني: **الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء**، مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر. ص 02و وما بعدها. مُحَمَّد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص ص32، 33، و ص 39 وما بعدها.

(**39**) المرجع نفسه. ص 33.

(**40**) وثيقة حول: **حبوس تنلان**، خزانة نتلان، ادرار، الجزائر.

(**41**) مُحَمَّد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص35.

(**42**) تقع غرب مدينة ادرار وتبعد عنها حوالي 06 كلم.

(**43**) **تقييد حول تأسيس قصر ملوكة**، بيد الشاري الطيب، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر.

(**44**) **الفرفور**: هو وحدة قياس تساوي عشرين مقياس، والمقياس يساوي 600 حبة من القمح المتوسط.

(**45**) للمزيد حول قصر ملوكة أنظر: عليق ريحة نابت: **قصر ملوكة دراسة تاريخية وأثرية**، رسالة ماجستير، قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2001. 2002م.

(**46**) عبد المجيد قدي: **صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة**، بدون ذكر لمؤسسة الطبع، الجزائر 2006. ص ص19، 20.

(**47**) Cornand G, **Aoulef et le Tidikelt occidental**, étude publiée par l'institut pasteur d'Alger en mars 1958.

(**48**) عبد المجيد قدي، المرجع السابق، ص 26 وما بعدها.

(**49**) مُحَمَّد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص 421.

(**50**) Abderrahmane Selka: **Notice Sur le Touat – Bul – SO – G – D' Alger**, Alger,1922, pp,526 – 527.

(**51**) Déporter: **La Question**, **du Touat au Sahara Algérien**, Alger, Fontana, 1891,p23.

(**52**) للرقم 10 قدسية خاصة في المنطقة، وهو مستوحي عندهم من العشرة أصحاب الرسول(ص) المبشرين بالجنة.

(**53**) مُحَمَّد باي بلعالم: المرجع السابق، ج1، ص70.

(**54**) مُحَمَّد بن عمر بن مُحَمَّد البوداوي، المخطوط السابق، ص20.

(**55**) للمزيد حول هذا الموضوع أنظر :عبد الله بن الطيب سماعيلي، **لمحة عن نشأة الفقارة وتطورها بتوات**، **مجلة النخلة**، المرجع السابق، ص 22 وما بعدها.

(**56**) مُحَمَّد باي بلعالم: المرجع السابق، ج1، ص71.

(**57**) مُحَمَّد باي بلعالم، المرجع السابق ج1، ص76.

(**58**) أحمد بن نعوم: **طرق القوافل من خلال الأسطوريات**، طريق القوافل، المرجع السابق، ص 24.

(**59**) للمزيد حول الموضوع أنظر:

Rig (Capitaine): **L' artisanat A Tamentit**, Institute de Recherches sahariennes. Alger , 1961.

(**60**) ابن بابا حيدة: المصدر السابق، ص ص14-18.

(**61**) أبو سالم العياشي: المخطوط السابق، ص11.

(**62**) الحس الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 134.

(**63**) joseph ki-zerbo: **histoire de l'Afrique noire d'hier à demain**, librairie Hatier. paris,1972,P166.

(**64**) فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص 78.